— يا سيدي العزيز اعتدل في اظهار حماستك واعلم اني مبتهج كل الابتهاج باختراعي هذا الطفيف . فليس في زيارتي لك ما يجعلك تفتخر متباهياً لأني صرت أتبرم تبرماً يحبب اليّ الموت منذ الحين الذي أصبحت فيهِ شبحاً وهمياً ولم أعد أبيع قصديراً ولا تبراً ولا عاجاً واضطررت على هذه الارض التي يطأ فيهـا المسيو ستانلي عن بعـد مواطئ قدميّ الى التحدث من حين الى آخر مع بعض العلمـاء او الفضوليين الذين يهمهم أمري . والآن يخيل اليّ اني سامع صياح الديك فاودّعك وانصح لك بان تسعى لحشد الثروة لأن الخير الوحيد في هذا العالم ملاكه الغنى والقوة

قال هذا الكلام وتوارى عن نظري وكانت ناري قد خمدت وبدأت أشعر ببرودة الليل وصداع أليم　　الياس الحويّك

شيء عن الفن

لقد عرف الانسان الفنون قبل ان عرف العلوم ، لأن مخيّلته اشتغلت قبل تنبّه افكاره. المخيلة ضيف تائه على الارض وهي اقوى القوى الادبية . حركتها لا تبطل ابداً في الحياة ، بل هي كالقلب تشتغل دائماً وعملها مستمر متواصل في النوم وفي اليقظة . فيها تحفظ تذكارات الماضي وآثار ما تنقله اليها الحواس من مناظر واصوات وانغام وروائح وتأثيرات ، ومن مزيج هذه التذكارات والآثار تتكوّن اصول الفنون ، فيأتي التصوّر والابتكار عاملاً في توسيعها ، وزيادة فروعها واتقان كمالاتها

اذا انت عدت بافكارك الى تاريخ الأعصر الغابرة تجد للفن المكان الاول في عظمتها ، ولا ترى للعلوم الاّ زاويةً حقيرة في اسفار المنشئين وتواريخ المفكرين . اما الكليات الغربية التي تأسست في القرن الحادي عشر فلم تكن تشغل الطلاّب الاّ بالشعر القديم والاحاديث الحربية وتواريخ الآداب المختصة باشهر شعوب العالم . فقد كان التلاميذ يدرسون اللغات اللاتينية ، واليونانية ، والعبرانية ، وربما العربية والآشورية ايضاً ، او غيرها من لغات الشرق القديم ، بدلاً من الطبيعيات والكيميا والهندسة . ولم يدرسوا من تآليف الأقدمين الاّ اشعارهم وتواريخهم وفلسفتهم ، ضاربين صفحاً عما كتبه بعضهم في الرياضيات

على ان العلوم اخذت في الانتشار رويداً رويداً منذ القرن الخامس عشر . فتعددت الاكتشافات ، وزادت الارباح ، وتكاثرت المداخيل الآلية فانصرف الفكر البشري الى العلم التجاري ، وامسى الفن شهيداً تقام له هياكل العبادة في ارواح الأفراد المفكرين من البشر . فالقرن العشرون الذي ندعوه عصر المدنيـة والنور ليس الاّ عصراً ميكانيكياً تجارياً ! . .

قال رُسكن الناقد الفني الكبير : « كل شعب يرتقي عنده الفن الى ما يقارب درجة الكمال تسقط مملكته وتتلاشى عظمته . »

لست ادري اذا رأيتَ في حياتك صورة رُسكن ، ايها القارئ اللبيب . اما انا فقد رأيتها ؛ وكثيراً ما انظر اليها فاحاول تتف شعر لحيته عند ما اذكر جملته هذه

اني اجهل ايّ عاطفة دفعته الى كتابة هـذه الخاطرة القاسية ، ولست ادري كيف يفسرها لو كان حياً . ترى كيف يمكننا ان نقدر قدر المصريين لو لم تكن لدينا بقايا هياكلهم وتماثيلهم ونقوشهم ، ونبوغ اليونان ان لم يكن بآدابهم وفنونهم ، وعظمة الرومان ان لم يكن بفلسفتهم وشعرهم ؟ ؟

واذا قابلت الشعوب الآتية بين هـذه البدائع الفنية القديمة وبين آثار اجيالنا الحاضرة ، كبرج ايفل مثلاً ... ألا تظن انهم سيحكمون باننا ، نحن ابناء الحاضر ، سليلة ابن نوح الملعون من ابيه خلقنا كي نكون عبيد ابناء عمينا المباركين ، ابناء القرون المنصرمة ؟ ..

يقول پول بورجه احد اعضاء الاكاديميا الفرنساوية « اثنان يفهمان الجمال الفنيّ : العالِم الراقي والفلاّح الساذج . وبين هاتين الطبقتين ، طبقة البشر العادية وهي كثيرة العدد ، ضيقة الفكر ، قاصرة المدارك ، باردة الروح » . ثم يأتي رُسكن ذو اللحية المنتفة قائلاً : « ان الفضيلتين اللازمتين لمحب الفن هما الحنان والصدق » . وكلاهما محق ، بل ان كلام الواحد منهما يفسر فكر الآخر .

يعني رسكن ان كل مصوّر ، او شاعر ، او موسيقي ، او نقاش يجب أن يكون سريع التأثر ، رقيق العواطف ، دقيق الملاحظة ، صادق القلب أهلاً لأن يكون ترجمان الروح ، وناقل بدائع الاحلام من عالم الاوهام الى عالم الوجود والافادة . وهو يشترط في الشاعر والمصوّر الحنان قبل الصدق لأن الحنان عاطفة طبيعية ثمينة ، واما الصدق فهو

عادة جميلة يكتسبها الانسان بالتربية الحسنة، والدرس، ومعاشرة الصالحين، ومناجاة الطبيعة . فلا تجد هاتين الفضيلتين بقوتهما العظيمة الاّ في فؤاد العالِم المفكّر وفي فؤاد الفلاح الساذج ، والاثنان اخوان !

أجل ! لقد احتضنت روح الانسان الفنون الجميلة منذ فجر المدنية ، لكن ذاك الارتعاش الطاهر لم يعد مالكاً على قلوبنا . لقد تلاشت افكار آبائنا العظيمة وتحولت قوتهم في الابناء الى اقتدار على اختراع الآلات المتنوعة ، والجهازات الغريبة . وفي هذه وفي تلك من الاختلال بقدر ما في أجسام البشر من الاختلاط والتناقض . واما الغرض من كل هذه الاختراعات المذهلة فهو ينقسم الى قسمين : الاول خدمة احتياجات الانسان الجسدية ، والثاني ، قتله بسرعة وسهولة . . !

ولكن العلوم الراقية المجردة عن اطماع التجارة والارباح ، كالتي انعكف على اتقانها غليلوس ونيوتن وبسكال فنحن نضمها في صف المعارف الثانوية . . . لأن حب المضاربة والمكسب يصرعنا كما تصرعنا بهرجة الاكتشاف والاختراع

ألا تظن ان ذلك المفكر العظيم نيوتن الذي استنتج من كيفية سقوط التفاحة قاعدة الناموس الابدي الذي يدير حركة العوالم الهائلة — ألا تظنه ناشئاً من نبت أفضل وأجمل من نبت تكوّن فيهِ فكر مخترعي الاجراس الكهربائية ، والعجلات والفونوغرافات ؟ ألا تظن ان هذه الاختراعات الدقيقة ، الجميلة في ذاتها ، تبرهن على دناءة الفكر العصري ، وسقوط النفس البشرية من اوج الجمال الى هوة التجارة ، حيث تتطلب

معاملة الاسواق غشاً وخداعاً وسرقة وخبثاً وكذباً ؟ . .

لست أدري أخطئة أنا ام محقة ؟ لكن هـذه الاكتشافات التي تهم الجمهور معرفتها ، لا أظنها تؤثر في ارواح الافراد كما تعمل فيها صوَر الفكر القديم وظواهره الفنيـة . ان هؤلاء الافراد يؤثرون على بلادة الترفه المكانيكي شرف العمل الروحي . فهم يظلون مدى حياتهم عبيداً لأحلام الجمال اللطيفة ، وذوي الامزجة السريعة التأثر حيث تختلط الحدة بالدعة ، والضحك بالغضب ، والسكوت بالسرور ، والتأملات بالخيالات الجميلة

في جنائن الغرب

﴿ حلاّبة جميلة ﴾

هي فتاة الريف البعيدة عن عالم الجمال الاصطناعي ، نظرة من عينيها البراقتين تغيّر وجه الناظر اليها ، هي تعرف ان نظرة الجميل خطيب صامت ينطق بمدح الفضيلة الا انها لا تبالي به ، فضائلها تؤثر السكينة على الضوضاء ، كانها تجهل ما هي عليهِ من الجمال ، وما أودع فيها الرحمن من كمال

بطانة ثوبها — اي جسمها — أجمل كثيراً من ظاهرها . لأنها وان كانت لا تلبس البز والارجوان فهي مزدانةٌ بالطهر والعفـاف — انعم به من حلّة جميلة حاكتها يد الصانع العظيم لا يد الانسان اللئيم